البلاغة النبوية في منظور الرافعي: قراءة في المنهج

Prophetic Eloquence According to al-Rāfiʿī: An Analysis of His Methodology

Kefasihan Nabi (al-Balaghah al-Nabawiyyah) Menurut al-Rāfiʿī: Analisa tentang Metodologinya

بن عيسى بطاهر*

مستخلص البحث

لقد كان مصطفى صادق الرَّافعي أحد أبرز الكتاب الذين عُنُوا بالبحث في البلاغة النبوية تنظيرًا وتطبيقًا، حيث سعى للكشف عن الخصائص الأسلوبية العامّة، والسمات التعبيرية التي تميّز بها الحديث الشريف عن سائر كلام العرب، كما حاول من خلال تحليلاته لبعض النصوص الكشف عن الأبعاد الدلالية والتجليات الجمالية التي تميّز بها الأسلوب النّبوي. وهذه الدراسة مقاربة نقدية لمنهج الرَّافعي في دراسته بلاغةَ الحديث النَّبوي الشَّريف، وذلك خلال استجلاء آرائه النظرية وتحليلاته التطبيقية، وتقويم منهجه من حيث الأصالة والتقليد، مع بيان أسباب اهتمامه بالحديث النّبوي الشريف ومسوّغاته في الدفاع عنه.

الكلمات الأساسية: البلاغة النبوية، الخطاب النبوي، الحديث النّبوي، الخصائص الأسلوبية، الأبعاد الدلالية، التجليات الجمالية، كلام العرب، الرافعي.

Abstract

Mustapha Ṣādiq al-Rāfiʿī was one of the most prominent writers who carefully studied the Prophet's eloquence both theoretically and practically. He applied himself to unveiling the general stylistic features and modes of

* أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، البريد الإلكتروني: benissa@sharjah.ac.ae

expression characterizing the Prophetic discourse and distinguishing it from the discourses of the Arabs. He also tried to unfold the semantic aspects and aesthetic manifestations of the Prophet's style based on the analysis of certain texts. The present study consists of a critical approach to al-Rāfiʿī's work in an attempt bring into light his theoretical views and applied analyses and evaluate his methodology in terms of originality and dependence. The study also highlights the reasons behind his interest in the Prophetic Traditions and his motives for defending them.

Key Terms: Prophetic eloquence, Prophetic Traditions, Prophetic discourse, stylistic features, semantic aspects, aesthetic manifestations, Arabic discourses, al-Rāfiʿī.

.

Abstrak

Mustapha Ṣādiq al-Rāfiʿī adalah salah seorang penulis terkenal yang mengkaji kefasihan Nabi secara teori dan amali. Beliau berusaha untuk membongkar ciri-ciri tentang gaya umum dan cara ungkapan yang menjadi ciri utama wacana Nabi dan perbezaannya dengan wacana Arab yang lain. Beliau mencuba untuk membentangkan aspek semantik dan manifestasi estatik Nabi berdasarkan analisa teks tertentu. Kajian ini mengandung pendekatan kritikal terhadap karya al-Rāfiʿī dalam inisiatif untuk memperkenalkan pandangan teori dan analisa gunaannya, dan seterusnya menilai metodologinya dari sudut keaslian dan sumber ikutan. Kajian ini juga menunjukkan sebab-sebab di sebalik minat yang beliau tunjukkan pada hadith Nabi di samping motifnya dalam mempertahankan hadith Nabi tersebut.

Kata Kunci: Kefasihan Nabi, wacana Nabi, hadith Nabi, gaya, semantik, manifestasi estetik, bahasa Arab, al-Réfiʿī

تمهيد

هذه الدراسة مقاربة نقدية في كتابات الأديب النَّاقد مصطفى صادق الرَّافعي ومنهجه في دراسة الحديث النَّبوي الشَّريف؛ فقد كان أحد الباحثين الروّاد الذين عُنُوا بالبحث في الرواية الحديثية والأدبية، كما كان رائدًا في دراسة البلاغة النَّبوية في العصر الحديث، فضلاً عن تأمّلاته وتحليلاته لجوانب مضيئة من سيرة الرسول ﷺ، وفتح بذلك الباب أمام الدارسين للاهتمام بفصاحة النبيِّ ﷺ وبلاغته، والبحث في خصائص تعبيره، وأنساق كلامه، وأساليبه التي خاطب بها البشرية.

وتعدّ كتابات الرافعي عن البلاغة النّبوية سواء في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية" أو في مقالاته في "وحي القلم" أنموذجًا جادًا للدراسات التي اهتمت بالجوانب

البلاغية في الحديث النبوي الشريف، فضلاً عن الأبعاد الدلالية والفكرية والاجتماعية والجمالية التي هدفت إليها، فعلى غرار عنايته بدراسة الرواية الحديثية وشروطها ومتعلّقاتها، كان الدخول إلى الآفاق البيانية للحديث الشريف، وبيان سماته الفكرية والجمالية، والتي ذكر منها: إحكام المنطق وإيجاز العبارة، والخلوص، والقصد، والاستيفاء، فضلاً عن مباينته للشعر، وتأثيره في اللغة العربية.

وأهمّية هذا الموضوع راجعة إلى ما في الحديث النَّبوي من منزلة في البلاغة العربية، فقد توافرت فيه عناصر أسلوبية مُحكمة تفوّق بها على كلام العرب، وهو في باب الفصاحة والتمكين لا يعدله شيء من كلام الفصحاء، كما أنّه يمتاز في جملته باجتماع الكلام وقلّته، واتّساع المعنى، وإحكام التعبير من غير تعقيد ولا تكلّف، وهو يمثّل نوعًا من خصائص النّبوة التي انفرد بها النبيُّ الكريم ﷺ دون الفصحاء والبلغاء، وذهب بمحاسنها في العرب جميعًا.

لقد عُنيت دراساتٌ كثيرة بكتابات الرَّافعي وإبداعاته الأدبية في فنون المقالة، والرِّسالة، والقصّة، كما اهتم بعضها باستجلاء محاولاته التجديدية وآرائه النقدية والفكرية، وجاءت هذه الدراسة لتحاول الكشفَ عن جانب آخر مهم مايزال – في رأينا – بحاجة إلى بحث واستقصاء، وهو منهج الرّافعي في دراسة البلاغة النبوية، وقد كانت الدراسات السابقة تشير إليه بإيجاز، وتمسّه مسًا لطيفًا في سياق الحديث عن تجربة الرَّافعي الأدبية، نذكر منها: "مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن" لمحمد رجب البيومي، التي أشار فيها إلى جهود الرّافعي في خدمة الإعجاز القرآني والبيان النبوي، و"نظرية بلاغة الحديث النبوي الشريف حقائق وشبهات" لعيد بلبع، التي أشارت إلى جهود الرَّافعي والمآخذ التي أخذت عليه في دراسته للحديث النَّبوي، و"مصطفى صادق الرافعي كاتبًا عربيًا ومفكرًا إسلاميًا" لمصطفى الشكعة، الذي حاول إبراز إنجازات الرافعي الفكرية والأدبية، والطابع الإسلامي الذي ميّز أدبه وأسلوبه ومنهجه.

وقد صُدِّرت هذه الدراسة بمبحث تمهيدي فيه بيان لجوانب من شخصية الرَّافعي

العلمية وروافده الثقافية، وأسباب اهتمامه بالحديث النّبوي روايةً وبلاغةً، ثمّ تناولت منهجه في دراسة الفصاحة النّبوية وسماتها التعبيرية، والبلاغة النَّبوية وخصائصها الأسلوبية من خلال الإطار النظري والتطبيقي، والأبعاد الفكرية والجمالية التي تدلّ عليها بلاغة النبيِّ ﷺ، وذلك من خلال عرض آرائه النظرية وتحليلاته التطبيقية لنصوص مختارة، كما أشارت الدراسة إلى مسوّغاته في الدفاع عن الحديث النَّبوي الشريف. وقد اتبعت المنهج الوصفي التحليلي في تناول هذا الموضوع، وحاولت مناقشة آرائه للكشف عن سمات منهجه، وما يمكن أن ينسب إليه بالأصالة أو التجديد، وما قد يُعزى لغيره وليس له سوى التبعية والتقليد.

جوانب من شخصية الرافعي العلمية وأسباب اهتمامه بالحديث النّبوي

يعدّ "مصطفى صادق الرَّافعي" أحد الأدباء والنُّقاد البارزين في العصر الحديث[1]، بدأ حياته الأدبية شاعرًا، ولَّما يتجاوز التَّاسعة عشرة من عمره، وأخذ ينشر شعره ومقالاته في المجلاّت التي كانت تصدر آنذاك، ودخل مجال الشهرة الأدبية عندما تبنَّى نشر شعره الشيخ "ناصيف اليازجي" في مجلة (الضِّياء) سنة 1903م. ثمّ كتب في تاريخ آداب العرب، وإعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية، وفن الرِّسالة الأدبية من خلال كتبه الثلاثة: "رسائل الأحزان" و"السَّحاب الأحمر" و"أوراق الورد"، وفنّ المقالة الأدبية التي جمعت في كتابيه: "وحي القلم"، و"تحت راية القرآن"، وقد ترك إنتاجًا متنوعًا في فنون الأدب والنقد والفكر[2].

اعتمد على جهوده الشخصية لتنمية معارفه، وقد كانت كتب التراث المحور الأساس في تكوينه الثقافي، "وقد نشأ نشأة السلف، يرى رأيهم، ويفكّر معهم،

---

1 ترجم للرافعي عدد كبير من الدارسين، لعلّ من أهمّها ترجمة تلميذه محمد سعيد العريان في كتابه "**حياة الرافعي**" (القاهرة: مطبعة الرسالة، 1939م)، وترجمة مصطفى نعمان البدري في كتابه "**الإمام مصطفى صادق الرافعي** (بغداد: دار البصري 1968م).

2 انظر: ما كتبه مصطفى الجوزو عن كتابات الرافعي في كتابه "**مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية العربية المطلة على السريالية**" (بيروت: دار الأندلس، 1985م)، ص57-114.

ويتحدّث بلغتهم"[1]، وكان حريصًا على أن تكون المصادر التُّراثية أساسًا لمنطلقاته الفكرية، ودعا مرارًا إلى إحياء التراث والتمسّك به، وضرورة تعليمه للأجيال القادمة، وأن يكون هذا التراث أساسًا يرتكز عليه كلّ أديب وناقد، من أجل المحافظة على أصالة الأدب وحيوية اللغة العربية.

ولعلّ من أبرز السِّمات التي ميّزت كتاباته: الأصالة الإسلامية، والأسلوب الأدبي الرصين، والجرأة في قول الحقّ؛ فالبيئة التي نشأ فيها قد غرست في نفسه حبَّ الإسلام، فأراد بكتاباته الأدبية خدمة الفكر الإسلامي بطريقته الأدبية الخاصّة، كما عُرف بأسلوبه الأدبي الجميل، الذي من أبرز خصائصه رونق العبارة، وجزالة اللفظ؛ وكان كثير الاعتناء بأسلوبه، فهو يجمع اللفظة إلى أختها بما يجانسها ويلائمها، إمّا في جرسها أو في حروفها، بالإضافة إلى الصقل والتهذيب[2]، ولعلّ عنايته الشديدة بصناعة الأسلوب قد مكّنت خُصومه من نقده، فأسلوبه كما يبدو لطه حسين أنسب إلى القرن الخامس والسادس للهجرة، ولا يستطيع أن يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تغيّر فيه الذوق الأدبي[3]، وقد كان "الرَّافعي" جريئًا في قول الحقِّ، وكانت له حوارات فكرية وأدبية مع كثيرٍ من الأدباء والنقاد المعروفين أمثال: العقّاد، وطه حسين، وعبد الله عفيفي[4].

والمتأمّل في كتاباته المختلفة يدرك مدى الحضور القوي للكلام النَّبوي في نفسيته وشعوره؛ فقد تحدّث عن تأثيره في نفسه، وكان دائم التأمّل فيه، مستلهمًا لما فيه من معاني، ومنبّهًا على أهمّيته العظيمة في إصلاح البشرية، قال:" تركت الكلام النَّبوي يتكلّم في نفسي، ويلهمني ما أفصح به عنه، فلكأنّي به يقول في صفة نفسه: إنّي أصنع

---

1 المرجع نفسه، ص19.

2 انظر: ضيف الله.م.ح.م، **نثر مصطفى صادق الرّافعي** (الجزائر: دار مكتبة الشركة الجزائرية، 1968م)، ص310، 311.

3 طه حسين، **حديث الأربعاء** (القاهرة : دار المعارف، 1960م)، ج2، ص7.

4 الشكعة مصطفى، **مصطفى صادق الرافعي كاتبًا عربيًا ومفكّرًا إسلاميًا** (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط3 1999م)، ص271.

أمّةً لها تاريخ الأرض من بعد" [1].

ويعدُّ كتابه "تاريخ آداب العرب" رائدًا في مجال التأريخ للأدب العربي؛ فقد وضع فيه الأسس الأولى في كتابة تاريخ الأدب عند العرب، واجتمعت فيه ثلاثة عناصر هي أساس قيمته الفنّية واللغوية والأدبية: أصالة المنهج، ودقّة السبك، وجمال الأسلوب[2]، وكان منهجه في دراسة الأدب العربي أميل إلى الدراسة الفنيّة والجمالية بعيدًا عن القسمة الزمانية[3]، كما تميّزت مادة الكتاب العلمية بالغنى والتنوّع.

وأمّا هدفه من هذا الكتاب فقد كان – فيما يبدو – البحث عن الأصول المنهجية للأدب العربي، وهي أصولٌ مرتبطة تاريخيًا بأصول المصادر الدينية للإسلام: القرآن الكريم والسنّة النّبوية الشريفة، ومن هنا نجده قد وقف وقفات طويلة مع الرِّواية والإسناد وعلوم الحديث، ويبدو أنّه قد أحسَّ بخطر ما يكتب، وعرف بسليقته أنّه يعرض لبابٍ متّصل الأسباب بقضايا إسلامية مقدّسة، وأنّ أحكامه التي سوف ينتهي إليها ستكون بعيدة الغاية خطيرة النتائج [4].

ولعلّ بحثه في موضوع الرواية الحديثية ثمّ الرواية الأدبية كان بمثابة المقدّمة المهمّة لدراسة البلاغة النّبوية؛ فإثبات الرواية بالحجج العقلية والنقلية سيكون منطلقًا فكريًا مهمًّا لدراستها برؤية واضحة المعالم، فبدأ بالحديث عن توسّع العرب في الحفظ مقارنة باليونان، ثمّ انتقل إلى الكلام عن الرواية بعد الإسلام الذي يعدّ من أنفس ما كتب في القديم والحديث[5]، فقد كان التاريخ لتدوين الحديث النّبوي الشريف في

---

1 انظر: الرافعي، مصطفى صادق، **وحي القلم**، ط1 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001م)، ج2، ص128)، وهو يشير إلى الحديث الشريف "زُويت لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها". رواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن برقم 3952.

2 م.ح.م، ضيف الله، **نثر مصطفى صادق الرافعي**، ص54.

3 لخضر، زبادية محمد، **من أعلام النقد العربي الحديث والمعاصر** (القاهرة : دار غريب، 2007م)، ص58.

4 الشكعة، **مصطفى صادق الرافعي كاتبًا عربيًا ومفكرًا إسلاميًا**، ص59.

5 البيومي، محمد رجب، **مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن** (دمشق: دار القلم 1997م)، ص80.

مراحله المختلفة كالمجهول؛ لأنّ الكتب القديمة تجمع عدّة روايات تتناقض في كثير منها، وتحتاج إلى فاحص متمرّس، فكان متميّزًا في هذا البحث[1]، فتناول توثيق الحديث الشريف بالإسناد والحفظ والرّواية، ووظائف الحفاظ في اللغة، وطرائق الأخذ والتحمّل، ملمًّا بما يجب أن يعرف عن السّماع والإجازة، والمكاتبة والوجادة، ثمّ عن الرحلة إلى البادية، وفصحاء الأعراب، والوضع والصنعة في الرواية، والاتّساع في الرِّواية، ونماذج من جهود الرُّواة، واختلاف الروايات والقصّاص، وطبقات الرواة والنسّابين والإخباريين، ورواة الشعر واللغة "[2]".

الفصاحة النَّبوية وخصائصها التعبيرية

عُني الرافعي بالبلاغة القرآنية ثمّ البلاغة النَّبوية في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية" وفي بعض مقالاته الفكرية والأدبية، و"صنيعه هذا يؤكّد اهتمامه بالنصّ العربي الأول للبيان الرفيع في المكتبة العربية؛ لأنّ أكثر مؤرِّخي الأدب من قبله ومن بعده يُجملون الحديث عن القرآن والحديث في صفحات مبتورة، وكأنَّهما ليسا أكبر نتاجٍ حافلٍ من العربية"[3]، فأراد التنبيه على أهمّية هذين المصدرين في الثقافة العربية والإسلامية، وبيان الخصائص التعبيرية التي ميّزتهما، ليكون ذلك حجّة أمام العقل البشري في القرن العشرين، ولاسيَّما بعد ظهور تيارات الإلحاد ومظاهر التغريب العنيفة في المجتمعات العربية والإسلامية[4].

وقد شمل حديثه عن البلاغة النَّبوية عدّة مباحث أبرزها: فصاحة النبيِّ ﷺ وإحكام منطقه، واجتماع كلامه وقلّته، ونفي الشعر عنه ﷺ، وتأثيره في اللغة، ونسق

1 المرجع نفسه، ص81.

2 الرافعي مصطفى، **تاريخ آداب العرب** (بيروت: دار الكتاب العربي، 1974م)، ج1، ص271 وما بعدها.

3 البيومي، محمد رجب، **مصطفى صادق الرَّافعي**، ص87.

4 الشكعة، مصطفى، **مصطفى صادق الرافعي كاتبًا عربيًا ومفكرًا إسلاميًا**، ص60.

البلاغة النَّبوية. وبالنظر إلى محتوى هذه المباحث سنجد أنّها تبحث – في مجملها – قضيتين أساسيتين، وهما:

الأولى: الفصاحة النّبوية، وبيان أسبابها المتعلّقة بالصفات الخَلقية والخُلقية للنبيِّ ﷺ، وأثر البيئة في تكوين مقدرته اللغوية الفائقة التي تميّز بها عن قدرات العرب اللغوية في عصره.

الثانية: البلاغة النَّبوية، وبيان خصائصها الأسلوبية، وأبعادها الدلالية والجمالية.

أمّا القضية الأولى فقد بدأ الحديث عن فصاحته ﷺ، وعقد موازنة بينه وبين فصاحة العرب التي عُرف عن أصحابها عنايتهم بتجويد الكلام، وقصدهم وتكلّفهم في الإجادة والإتقان، بينما كان رسول الله ﷺ بعيدًا كلّ البعد عن التكلّف والصَّنعة، وكان لا يُبالغ في تنميق الكلام زيادة على القدر الذي يصل به إلى النُّفوس، فقد كانت طريقته محكمةً بحيث لا يجدُ النَّاظر فيها عيبًا مما يُستكره في فنون القول، أمّا المعاني فهي إلهام النبوّة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل[1].

وقد رجَّح الرافعي مذهب التوقيف في أمر لغة الرسول ﷺ، فقال:"لا نعلم أنَّ هذه الفصاحة قد كانت له ﷺ إلاّ توفيقًا من الله وتوقيفًا"[2]، وقد ذهب هذا المذهب الشافعي (204هـ)، وابن فارس (395هـ)، وأئمَّة العرب لغويين ومفسِّرين، ومحدّثين وفقهاء[3].

ومع أنّ فصاحة النبيِّ ﷺ توقيفٌ من الله تعالى، فقد تحدّث الرَّافعي طويلاً عن الأسباب الشَّخصية والبيئية التي كوّنت المَلَكَة اللغوية لدى النبيِّ ﷺ، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

1- النشأة اللغوية في بيئاتٍ عربيةٍ فصيحةٍ، فتحدَّث عن مولده ﷺ، ومنشئه في

---

1 الرافعي، مصطفى، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** (بيروت صيدا: المكتبة العصرية، 2003م)، ص228، 229.

2 المصدر نفسه، ص229.

3 الشافعي، محمد بن إدريس، **الرسالة**، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: 1939م)، ج1، ص91. وابن فارس، أبو الحسين أحمد، **الصاحبي في فقه اللغة العربية** (بيروت: دار الكتب العلمية 1997م)، ص14.

قريش، وسيرته الشَّريفة، كما وقف عند صفاته ﷺ الجسدية، واستعداداته الفطرية، وتأثير كلماته في أصحابه، وتوصّل إلى أنّ النبيّ الكريم ﷺ هو "الإنسان الذي تسعُ نفسه ما بين الأرض وسمائها، وتجمع الإنسانية بمعانيها وأسمائها"[1].

2- الفطرة اللغوية الذي تجسدت في شخصه ﷺ، والتي مكّنته من معرفة لغة قريش ولغات العرب، وهذا غاية سداد الفطرة وقوّة الملكة، وهو أمرٌ لم تنطوِ عليه كثيرٌ من الفِطَرِ؛ وكان وجود هذه الفطرة نادرًا عند العرب[2].

3- المعرفة الدقيقة بلهجات العرب، فقد جمع ﷺ بين هذه اللهجات وخاطب كلّ قومٍ بلغتهم، وهذا ممّا انفرد به عن سائر العرب؛ فلا تكاد هذه المعرفة تجتمع في رجلٍ واحدٍ؛ لأنّ لكلّ لهجة سماتها الخاصّة بها، ويرى الرافعي أنّ العلم بهذه اللهجات هو ممّا وفقه الله إليه دون غيره من النّاس[3].

وتطرّق الرافعي إلى صفات الرسول ﷺ في أداء الكلام، أو ما أسماه بـــ"إحكام منطقه ﷺ "، فعلّل صمتَ الرسول ﷺ وتجمّعه قبل الحديث، وبيّن أنّ عقله كان وراء لسانه، فهو الغالب عليه المصرّف له، حتّى لا يعتريه لبسٌ، ولا يتخوّنه نقص، قال:"وليس إحكام الأداء، وروعة الفصاحة، وعذوبة المنطق، وسلامة النظم إلاّ صفات كانت فيه ﷺ، عنده أسبابها الطبيعية، لم يتكلّف لها عملاً وارتاض من أجلها رياضة، بل خُلِقَ مكتمل الأداة فيها، ونشأ متوفِّر الأسباب عليها، كأنّه صورة تامّة من الطبيعة العربية"[4].

والصفات الخَلْقِية لها وظيفتها المهمّة في فصاحته ﷺ، فقد كان ﷺ ضليع الفم، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، واللغة بطبيعتها تحتاج إلى هذه المزية؛ لأنّها تعطي الكلمات حقّها من حيث المخارج وحسن الأداء، وجهارة الصوت، وإشباع

1 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص235.

2 المصدر نفسه، ص230، 231.

3 المصدر نفسه، ص257.

4 المصدر نفسه، ص239

الحروف، كما كان ﷺ حسن الصوت، والصوت تمام هذه اللغة وحليتها؛ لأنّها تعتمد على الموسيقى والنغم؛ ولذلك خرجت اللغة من فمه ﷺ على أحسن أداء من حيث خفة الوزن، وصحّة الاعتدال، وتمام التساوي. وبيّن الرافعي أنّ هذه الصفات بلغت درجة الكمال في شخصه ﷺ، وهو أمرٌ لم يتهيـــأ لغيره.

ويبدو الرافعي في هذا المبحث متأثّرًا بكلام القدماء عن فصاحته ﷺ، لعلّ من أبرزهم الجاحظ[1]، وكذلك القاضي عياض الذي أشار إلى سلامة طبعه ﷺ، وبراعة مَنْزَعه، وإيجاز مقطعه، ونصاعة لفظه، وصحّة معانيه، وقلّة تكلّفه، وعلمه بألسنة العرب[2].

وقد أُخذ على الرَّافعي اهتمامه الكبير بقضية النَّشأة اللغوية للنبيِّ ﷺ، حين أرجع أكبر الشأن في اكتساب المنطق واللغة إلى الطبيعة والمخالطة والمحاكاة، فقد قال: " نشأ النبيُّ ﷺ وتقلّب في أفصح القبائل وأخلصها منطقًا وأعذبها بيانًا، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في بني سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة"[3]. وأمّا وجه الاعتراض عليه فهو أنّ الإعلاء من هذه المكتسبات البشرية قد حجّم قضية النبوّة، كما أنّ كلامه قد فتح المجال أمام آخرين لتضخيم هذه المسألة[4]، كما أنّ الأسباب البشرية التي توفّرت للنَّبيِّ ﷺ قد توفرت لكثير من العرب في عصره، "فعوامل البيئة والتربية والنَّسب لم ينفرد بها رسول الله ﷺ، ولكنَّ الحقيقة أنّ هذه العوامل يشترك فيها عددٌ هائل من العرب؛ أي أنّها

---

1 انظر: الجاحظ، عثمان بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق محمد عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط7، 1998م)، ج2، ص16 وما بعدها.

2 القاضي، عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، تحقيق علي محمد البجاوي (بيروت: دار الكتاب العربي 1984م)، ص95، 96.

3 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص231.

4 انظر: الدبل، محمد سعد، **الخصائص الفنّية في الأدب النبوي** (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (د.ت))، ص55. و الصبّاغ محمد، **التصوير الفني في الحديث النبوي** (بيروت: المكتب الإسلامي، 1988م)، ص21.

ليست مناط التفرّد، وإنّما منـــاط التفرّد هو النُّبوة والرسالة ليس غيـــر"[1].

ومُستند هذا النَّقد راجعٌ إلى أنّ إثبات القدرة اللغوية لمحمّد ﷺ ليكون دليلاً عقليًا تاريخيًا على أنّ فصاحته وبلاغته ﷺ وليدة البيئة والنّسب والقدرة الشخصية، لا تختلف عن تلك الآراء التي جدَّ المستشرقون في محاولة إثباتها ليُقيموا دليلاً عقليًا على أنّ القرآن من كلام محمّد ﷺ وليس وحيًا إلهيًا[2].

فهل رَبْطُ الفصاحة النّبوية بالعوامل الشخصية والبيئية مثّلَ إشكالية حقيقية عند الرَّافعي؟ وهل كان كلامُهُ سببًا في تضخيم هذه القضية على حساب قضية النبوّة عند الذين تأثَّروا بكلامه؟

والجواب أنّ الرَّافعي لم يكن بإمكانه التغاضي عن الأسباب المادية التي كوّنت شخصية النبيّ ﷺ، فجلّ كتب السيرة النّبوية تُثبت هذه الحقائق الواقعية، كما أنّه قد أشار في كثيرٍ من الأحيان إلى أنّ الفصاحة النَّبوية وحيٌ وإلهام من الله تعالى[3]، وهذا هو سرّ بيانها الذي ارتقى إلى درجة من الكمال الذي لا يحصل إلاّ لنبيٍ. وحين ذكر الحديث الشريف "**أُعطيتُ جَوَامِعَ الكَلِم**"[4]، أشار إلى أنّه ﷺ "يتحدّث في ذلك بنعمة الله عليه، فما هو اكتسابٌ ولا تمرينٌ، ولا هو أثرٌ من أثرهما في التفكير والاعتبار، ولا هو غايةٌ من غايات هذين في الصَّنعة والوضع"[5]؛ فكلامُهُ واضحُ الدلالة في إرجاع فصاحة النبيّ ﷺ إلى النبوّة.

---

1 بلبع، عيد، نظرية بلاغة الحديث النبوي حقائق وشبهات، **مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنوّرة**، العدد 25، ص22.

2 المرجع نفسه، ص21.

3 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص230.

4 البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح** (بيروت: دار ابن كثير، 1987م) باب المفاتيح في اليد برقم 6611 ولفظه: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ". ومسلم أبو الحسين النيسابوري، **صحيح مسلم** (بيروت: دار إحياء التراث العربي (د.ت))، كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم 523.

5 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص272.

وأمّا الدارسون الذين أعلوا من شأن هذه القضية، فلا يحمل الرافعي وزرهم؛ لأنّه تكلّم عن هذه القضية بعقلية المؤرّخ وأسلوب الأديب، فعلى الرغم من حماسته الأدبية فلا نكاد نشعر من خلال كلامه إلاّ الإعجاب بالبلاغة النّبوية التي شكّلتها النبوّة بالدرجة الأولى، ثمّ كانت عوامل الفطرة والبيئة والتكوين من الأسباب التي هيأها الله لنبيّه ﷺ وجعلها خالصة له، "إذ ليس في العرب قاطبةَ من جمع الله فيه هذه الصفات، وأعطاه الخالص منها، وخصّه بجملتها، وأسلس له مآخذها، وأخلص له أسبابها كالنبيِّ ﷺ، فهو اصطنعه لوحيه، ونصبه لبيانه، وخصّه بكتابه، واصطفاه لرسالته"[1].

واعتمد الرافعي على أدلة نقلية صحيحة المعنى وإن كانت ضعيفة السند لإثبات هذه القضية فذكر حديثه ﷺ :"**أنا أفْصَحُ العَرَبِ**"[2]، وقد سأله أبو بكرٍ – رضي الله عنه –: لقد طُفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعتُ أفصح منك، فمن أدّبك؟ فقال ﷺ: "**أدَّبني ربِّ فأحْسَنَ تَأديبي**"[3]، فكان هذا ممّا خُصَّ به النَّبيُّ ﷺ.

ومن متعلّقات هذا الموضوع نفي الشعر عن النبيِّ ﷺ، فذهب الرّافعي إلى أنّه ﷺ لم يُمنع إقامة وزن الشعر في إنشاده، إلاّ أنّه مُنع من إنشائه، وقد كان مع ذلك يُحبّ الشعر ويستنشده، ويُثيب عليه، ويمدحه متى كان في حقّه ولم يعدل به إلى ضلالة أو معصية[4]. كما أشار إلى تأثير الحديث النَّبويّ الشريف في اللغة[5]، فذكر ألفاظًا

---

1 المصدر نفسه، ص231.

2 قال العجلوني: "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش" قال في اللآلئ : معناه صحيح ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير وغيره من الحافظ وأورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد". فالحديث لا يصحّ سندًا وإن كان معناه صحيح، انظر: العجلوني، **كشف الخفاء ومزيل الالتباس** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1988م)، ج1، ص232).

3 قال العجلوني في **كشف الخفاء** ج1، ص72): رواه العسكري عن علي رضي الله عنه... وسنده ضعيف جدًا، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن معناه صحيح، ولكن لا يعرف به إسناد ثابت. انظر: **مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية** (الرياض: مكتبة ابن تيمية، 1982م)ج18، ص375.

4 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** ، ص249-251.

5 المصدر نفسه، ص253.

وعباراتٍ نطق بها الرسول ﷺ فكانت حكمًا وأمثالاً سار بها لسانُ الفصحاء وأهل البيان، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ:"**ماتَ حَتْفَ أنْفِه**"[1]، وقوله:"**الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ**"[2]، ثمّ تحدّث عن استعماله ﷺ لبعض الغريب في مخاطبة الأعراب في رسائله، ويبدو أنّه متأثّرٌ في كلامه هذا بما ذكره الدارسون القدماء كالجاحظ[3]، والخطّابي[4]، والقاضي عياض[5]، وغيرهم، ولا جديد فيه سوى التنويع في العرض، والإجادة في الوصف.

البلاغة النبوية وخصائصها الأسلوبية

وأمّا القضية الثانية المتعلّقة بالبلاغة النّبوية فقد بيّن الرَّافعي ما في كلامه ﷺ من الصَّنعة المحكمة، والطَّبع القوي، والصَّقل البديع، واللفظ المُونق، والحكمة النَّاصعة، وضرب لذلك أمثلة من أقواله ﷺ، شارحًا لما فيها من ميزات بيانية، وأسرار لغوية، منتهيًا إلى أنّ أسلوبه ﷺ متفردٌ في هذه اللغة، قد بان من غيره بأسباب طبيعية فيه، وأنّ ما أشبهه من بلاغة النّاس في الكلمات القليلة والجمل المقتضبة، لا يُشبهه في العبارة المبسوطة[6].

وقد جاء وصفه للبلاغة النَّبوية – في إطارها العام – من خلال ثلاث جهات هي: اللغة، والبيان، والحكمة، فذكر من الصفات التعبيرية الدالّة على سموّ البلاغة النّبوية وساقها ممزوجة بانطباعاته النَّفسية، فقال عن العنصر الأوّل (اللغة): كلامه

---

1 الحاكم محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1990م)، ج2، ص97، وصحّحه. وانظر: أحمد بن حنبل، **المسند** (مصر: مؤسسة قرطبة (د.ت))، ج4 ص36.

2 مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد، باب غزوة حنين برقم 1775، وذكره الميداني أحمد بن محمد، **مجمع الأمثال** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م)، ج2، ص105.

3 الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج2، ص15 وما بعدها).

4 الخطابي، **غريب الحديث**، تحقيق عبد الكريم العزباوي (مكّة المكرّمة: جامعة أمّ القرى، 1402هـ)، ج1، ص65 وما بعدها.

5 القاضي عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، ج1، ص95 وما بعدها.

6 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص260.

ﷺ:"مسدّد اللفظ، مُحكم الوضع، جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التأليف والنّسق، ثمّ لا ترى فيه حرفًا مضطربًا، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتمّ منها أداءً للمعنى، وتأتيًا لسرّه في الاستعمال"[1].

وهذا الكلام شبيه بما ذكره الجاحظ[2]، وهو في جملته حديث عن "النّظم" ومقتضياته من حيث: حسن اختيار الألفاظ، ودقّة التركيب، وجودة التناسب بين الأجزاء، فضلاً عن فصاحة الألفاظ.

وأمّا العنصر الثاني (البيان) فقد قال بشأنه: "حَسَن المعرض، بيّن الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيّد الرصف، متمكّن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثمّ لا ترى فيه إحالة ولا استكراهًا، ولا ترى اضطرابًا ولا خطلاً، ولا استعانة من عجز، ولا توسّعًا من ضيق، ولا ضعفًا في وجه من الوجوه"[3].

فحسن العرض مردّه إلى الأسلوب وطريقة الأداء، وهو الجانب المتعلّق بالجمال الفنّي في التعبير، وقد ساق الرافعي ألفاظًا دالّةً على ذلك دون الخوض في أساليب التفنّن، وطرائق التشبيه والمجاز التي حفلت بها البلاغة القرآنية.

وأمّا العنصر الثالث (الحكمة) فقد وصفه بقوله:"سموّ المعنى، وفصل الخطاب، وحكمة القول، ودنوّ المأخذ، وإصابة السرّ"[4]. وهذا الجانب متعلّق بالمعاني التي وردت في الحديث النّبوي، وفيها من حكمة النُّبوة، وتبصير الوحي، وتأديب الله، وفيها تأكيدٌ منه أنّها وحيٌ من الله تعالى يسمُو به على الفكر الإنساني.

---

1 المصدر نفسه، ص261.

2 الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج2، ص17.

3 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص261.

4 المصدر نفسه، ص261.

وعقد الرّافعي فصلاً موجزًا للكشف عن سِمات الأسلوب النَّبوي، فذكر ثلاث خصائص بارزة، ثمّ شرحها بإيجاز مبيّنًا مقصده منها، وهي:

(أ) الخلوص: ويعني الإحاطة باللغة والتمكّن منها، فإنّه "لم يكن في العرب من ينفذ في اللغة وأسرارها وضعًا وتركيبًا، ويستبعد اللفظ الحرّ، ويحيط بالعتيق من الكلام، ويبلغ من ذلك إلى الصميم ما يبلغه رسول الله ﷺ "[1].

(ب) القصد: والمقصود به جوامع كلامه ﷺ، "فالإيجاز والاقتصاد على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه، ومن طبيعة الألفاظ في معانيها، ومن طبيعة النَّفس في حظّها من الكلام وجهتيه اللفظية والمعنوية، فذلك ما امتازت به البلاغة النَّبوية"[2].

(جـــ) الاستيفاء: ويعني به الوفاء بحقِّ المعنى مع وجازة اللفظ؛ "فما جاء به كلام محمّد ﷺ على حذف فضوله، وإحكامه، ووجازته، مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج، ولا إحالة ولا اضطراب، حتّى كأنّ تلك الألفاظ القليلة إنّما ركّبت تركيبًا على وجهٍ تقتضيه طبيعة المعنى في نفسه، وطبيعته في النفس، فمتى وعاها السامع واستوعبها القارئ تمثّل المعنى وأتمَّه في نفسه حسب ذلك التركيب، فوقع إليه تامًا مبسوط الأجزاء"[3].

وخلص إلى أنَّ هذه الخصائص الثلاث هي التي جعلت كلامه ﷺ خاليًا من التعقيد والعِيّ، والخطل والانتشار، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة: كالمجاز البعيد الذي يغوص إلى الأعمال الخيالية، وضروب الإحالة، وفساد الوضع اللغوي، وفنون الصّنعة[4].

لقد جاء حديثه عن السِّمات العامّة للبلاغة النَّبوية مقتضبًا مقارنة بحديثه عن

---

1 المصدر نفسه، ص271.

2 المصدر نفسه، ص271.

3 المصدر نفسه، ص271، 272.

4 المصدر نفسه، ص272.

الفصاحة النّبوية وتأثيرها في اللغة، ولو أنّه توسّع في هذه المسألة لكان أجدى له وأفضل؛ لأنّ الحديث عن الفصاحة النّبوية مذكور عند العلماء السابقين كالجاحظ والخطّابي وغيرهما، أمّا الحديث عن البلاغة النّبوية – التي تحقّقت فيها شروط الخطاب النّاجح – فهي الجديرة بالدراسة المستفيضة؛ لأنّ الكلام يوصف بالبلاغة بوصفه رسالة لغوية بين مرسل ومستقبل أدّت إلى عملية تواصل ناجحة بالوسائل الأسلوبية التي تحقّق الإقناع والإمتاع، ومن ثمّ فالفصاحة تتيسّر لعدد كبير من الفصحاء، أمّا البلاغة فلا تتيسّر إلاّ لعددٍ يسيرٍ منهم[1].

وإذا عدنا إلى تلك الخصائص الثلاث التي ذكرها بأنّنا سنجد في ثنايا كلامه مجموعة من الأوصاف ترشدنا إلى المقصود منها؛ إذ هذه المصطلحات الثلاث (الخلوص، والقصد، والاستيفاء) مختلفة في دلالتها عن المصطلحات المتعارف عليها عند علماء البلاغة وإعجاز القرآن، فمصطلح (الخلوص) ذكر له من الأوصاف الشارحة له: النفاذ في اللغة من حيث الوضع والتركيب، والأسلوب الجامع المجتمع على توثّق السرد وكمال الملاءمة[2]. وهي عبارات تدلّ على أنّ المقصود به عملية النظم وتركيب الكلام الذي بيّنه شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز؛ فمعرفة اللغة واختيار الألفاظ وتركيبها التركيب الحسن، والربط بين أجزائها والملاءمة بين عناصرها هو النّظم، وقد سمّاه عبد القاهر أسلوبًا أيضًا[3]، ويبدو أنّ الرَّافعي أراد التعبير عن مدلول "النظم" بألفاظ وعبارات جديدة دون أن تحمل جديدًا من حيث المحتوى.

وأمّا مصطلح (القصد) فهو المرادف لمصطلح الإيجاز الذي تداوله البلاغيون القدماء

---

1 بلبع، **نظرية بلاغة الحديث النبوي الشريف**، ص22.

2 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص271.

3 قال عبد القاهر:"والأسلوب الضَّربُ من النّظم والطريقة فيه". انظر: **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمود شاكر (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط2 1989م)، ص468، 469.

في مصنّفاتهم، وقد أشار الرَّافعي إلى هذه الخاصيّة الأسلوبية في الحديث النَّبوي الشريف، ويبدو تأثره واضحًا بما كتبه الجاحظ في البيان والتبيين، قال الرافعي عن الإيجاز في كلامه ﷺ :"اجتماع الكلام وقلّة ألفاظه مع اتّساع معناه، وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلّف"[1]، وقال الجاحظ: "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصَّنعة، ونُـــزّه عن التكلّف"[2]، والتشابه واضح بين عبارات الرجلين في وصف كلامه ﷺ.

وأمّا مصطلح (الاستيفاء) فهو تابعٌ للإيجاز؛ لأنّ المقصود به الكلام الموجز مع "الوفاء بحقّ المعنى"، وقد ذكر أنّه الذي يخرج به الكلام – على حذف فضوله وإحكامه ووجازته – مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج[3]؛ أي أنّ المتلقي يفهمُ المرادَ من كلامه ﷺ دون عناء وإعمال فكر، والإيجاز مع الوفاء بحقِّ المعنى إحدى الخصائص الأسلوبية التي توفرت في الخطاب القرآني المعجز[4]، وقد أشار الرَّافعي إلى أنّ هذا التصرّف بالكلام بهذه الطريقة قلّما يستحكم لامرئ إلاّ بتأييد من الله وتمكين من اليقين، فهو على حقيقته ممّا لا تُعين عليه الدّربة والمزاولة إلاّ شيئًا يسيرًا إلاّ يستوفي هذه الحقيقة[5].

وبالنظر إلى منهجه في دراسة نسق البلاغة النّبوية نجد أنّ الرّافعي لم يتمكّن من تجاوز ما ورد عن القدماء، فجاء كلامه موصوفًا بطابع العمومية في إصدار الأحكام على المعاني، والنظم، والأسلوب، واكتفى بسرد كثير من العبارات الوصفية التي تصف هذه البلاغة من جهات مختلفة، وليته توقّف عند كلّ عنصر من تلك العناصر، وحدّد مفهومه وأقسامه، وتناوله بالدراسة العلمية التي تعتمد على الوصف الموضوعي، والتحليل اللغوي، وبيان عناصر الإبداع ومواطن الجمال في النصّ النَّبوي، ثمّ خلص

1 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص242.

2 الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج2، ص16، 17.

3 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص271، 272.

4 دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم** (الكويت: دار القلم، ط4 1977م)، ص109.

5 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص272.

من هذا كلّه إلى بيان الخصائص العامّة التي تشكّل هذا النصّ المتميّز، ولكن تعلّق الرافعي – فيما يبدو – بمناهج القدماء جعله يفضّل طريقتهم في البحث والاستدلال والتحليل، حتّى إنّ القارئ ليشعر أنّ أسلوبه في العرض صورة مشابهة لما عهدناه عند النقاد والبلاغيين في القرن الرابع والخامس الهجريين.

وأكّد الرافعي أنّ البلاغة النَّبوية أقلُّ درجة من بلاغة القرآن المعجزة، ولكنّها في الوقت نفسه تعلُو على بلاغة البشر، وهي ليست معجزة كإعجاز القرآن الكريم؛ لأنّ كلام النبيِّ ﷺ ممّا يطمع الإنسان في مثله، بخلاف القرآن؛ فإنّ النَّفس تستيئس من جملته، ولا ترى إليه طريقًا البتّة، إذ لا تحسّ منه نَفْسًا إنسانية، ولا أثرًا من آثار هذه النَّفس[1]، وتبقى البلاغة النَّبوية فوق ذلك كلّه برهانًا قاطعًا على صدق رسالة الله في رسوله ﷺ.

البلاغة النبوية وأبعادها الفكرية والجمالية

اهتم الرّافعي بالدلالات الفكرية للحديث النّبوي الشريف من خلال تحليلاته لنصوص قليلة في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، وفي بعض المقالات التي جمعت في كتابه "وحي القلم"، ويبدو أنّه قد أولى الدلالات الفكرية أهميّة كبيرة من خلال تأمّلاته في تلك النصوص، أمّا الدلالات الجمالية فكان يُشير إليها بصورة موجزة دون الخوض في استجلاء ما حفلت به تلك النصوص من جمال في الأداء، وروعة في الأسلوب. وكثيرًا ما كان يمزج تأملاته الفكرية بانطباعاته النَّفسية، وقد أشار إلى ذلك بقوله: "كنت أتأمّله – أي كلام الرسول – قِطَعًا من البيان، فأراه ينقلني إلى مثل هذه الحالة التي أتأمّل فيها روضة تتنفّس على القلب، أو منظرًا يهزُّ جمالُه النَّفس، أو عاطفة تزيدُ بها الحياة في الدمّ، علّة هدوء وروح وإحساس ولذّة"[2].

---

1 المصدر نفسه، ص266.

2 الرافعي، **وحي القلم**، ج2، ص128.

ولعلّ من النّصوص التي توقّف عندها[1]، ورأى أنّها أصبحت ميراثًا خالدًا في البيان العربي قوله ﷺ :"**مَاتَ حَتْفَ أَنْفِه**"[2]؛ أي على فراشه، فللعبارة دلالة أخرى أضافها الرافعي، وهي أنّ موت الرجل على فراشه من غير حربٍ ولا قتالٍ ولا أمرٍ يُؤرخ به الموت في الألسنة، ممّا يأنفُون له؛ فكأنّ صاحب هذه الميتة إنّما ماتت أنفتُهُ وكبرياؤُه، فلم يرفع الموت أنفه في القوم، بل أذلّه وأرغمه، فكان به هلاكه [3]، وقد أشار القدماء إلى أنّ المقصود به الموت الذي يكون بغير ضرب ولا قتلٍ، وهو أن يموت على فراشه كأنه سقط لأنفه فمات، والحتف الهلاك، وقال ابن الأثير: كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه، فإن جُرِح خرجت من جراحته[4]. وأشار الرّافعي إلى جمال هذا النصّ الراجع إلى المجاز في تركيبه، فالعرب تستعمل الأنف للأنفة والكبرياء، فكان استعمال هلاك الأنف بالمعنى المضاد للعزة والأنفة.

وأشار كذلك إلى قوّة التعبير عن شدّة الحرب في قوله ﷺ "**الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ**"[5]، ولكنّه لم يتطرّق إلى ما فيه من جمال فنّي، وقد بيّن ابن الأثير جمال هذا التعبير وتفرّد كلام النبيِّ ﷺ به فقال: "إنّ الوطيس هو التنّور، وهو موطن الوقود ومجتمع النّار، وذلك يخيّل إلى السامع أنّ هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقّدها، وهذا لا يوجد في قولنا "استعرت الحربُ" أو ما جرى مجراه"[6]. وقيل: هو كناية عن شدّة الأمر واضطرام الحرب، واستعارة الوطيس للحرب من أحسن الاستعارات[7].

---

1 جلّ النصوص التي أشار إليها الرّافعي قد ذكرها قدامى البلاغيين أمثال: الجاحظ في **البيان والتبيين** ج2، ص51)، وابن الأثير ضياء الدين، **المثل السائر**، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة (القاهرة: دار نهضة مصر (د.ت))، ج1، ص96) وغيرهم.

2 سبق تخريجه.

3 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص253.

4 ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب المحيط** (بيروت: دار صادر، 1992م)، مادة (حتف).

5 حديث صحيح، وقد سبق تخريجه.

6 ابن الأثير، **المثل السائر**، ج1، ص97.

7 ابن الأثير، الجزري، **النهاية في غريب الأثر**، تحقيق طاهر الزاوي (بيروت: المكتبة العلمية، 1979م)، ج1، ص447.

وفي تحليله لقوله ﷺ :"**هُدْنَةٌ على دَخَنٍ**"[1]، أشار إلى ما فيه من التصوير البياني الذي لو أذيت له اللغة كلّها ما وفَّتْ به؛ وهو تصوير يدلّ على أنّ الصلح إنّما يكون مُوادعة ولينًا وانصرافًا عن الحرب، وهذه كلّها من عواطف القلوب الرحيمة، فإذا بني الصلح على فساد، غلب ذلك على القلوب فأفسدها، كما يغلبُ الدّخنُ على الطعام، فلا يجد آكله إلاّ رائحة هذا الدخان، والنكتة في اختيار لفظة (الدّخن) هي في الدلالة على أنّ الصلح لا يكون إلاّ أن تُطفأ الحرب، فهذه حربٌ قد طُفئت نارها بما سوف يكون فيها نارًا أخرى، كما يلقى الحطب الرَّطبُ على النّار تخبُو به قليلاً، ثمّ يستوقد فيستعر فإذا هي نارٌ تلظى[2]. وقد أشار القدماء إلى بلاغة هذا النّصّ وما فيه من استعارة "الدّخن" للدلالة على فساد الضمائر والنّيات[3].

وبيّن الرافعيُّ بلاغة التعبير في قوله ﷺ :"**بُعِثْتُ في نَفَسِ السَاعَةِ**"[4]، وكشف عن أسرار النَّظم في اختيار لفظة (نَفَس) وما تفيده من دلالات معنوية، ومنها: أنّ هذه اللفظة تدلّ على أدقِّ معاني الحسِّ بالشَّيء القريب، وفيها دلالة على شدّة القرب، و لم يستعمل التعبير النَّبوي لفظة (أنفاس) بالجمع؛ لأنّ النفخة الشَّديدة متى جاءت من بعيد كانت كالنَفَسِ من الأنفاسِ، والمراد أنّ الساعة من القربِ كأنّها من كلّ إنسان في آخر أنفاسه[5]، كما أشار إلى معنى مجازي آخر وهو أنّ عمر الأرض كان طويلاً فكانت الساعة بعيدة، ثمّ قصر هذا العمر فبدأت الساعة تتنفّس، والمعنى الآخر لهذا التعبير أنّه يقال على المجاز: فلانٌ في نفَسٍ من ضيقه، إذا كان في سعةٍ ومندوحة،

---

1 الحاكم، **المستدرك**، ج4 ص479) وصحّحه على شرط الشيخين. وأحمد في **المسند**، ج5 ص403.

2 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص263، 264.

3 الميداني، **مجمع الأمثال**، ج2، ص383.

4 الترمذي محمد بن عيسى، **سنن الترمذي** (بيروت: دار إحياء التراث العربي (د.ت)، كتاب الفتن، باب ما جاء في قَوْلِ النبي ﷺ: بُعِثْتُ أنا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ برقم 2213. وقال: حديث غريب.

5 أشار ابن الأثير إلى هذا المعنى في **المثل السائر**، ج1، ص97.

فيكون التأويل على ذلك: أنّ الساعة آتية وأنّها قريبة، وأنّها تكاد تكون ولكن البعثة في نَفَسٍ منها، فليعمل النّاسُ لآخرتهم فإنّه يوشك أن لا يعملوا[1].

فعناية الرافعيِّ بالتحليل اللغوي واضحة في هذا النصّ، وحبّذا لو أنّه ارتقى بهذا التحليل وأشار إلى مواطن الجمال الفنّي التي دلّت عليها الاستعارة المكنية، وهي تشبيه الساعة بالكائن الحيّ الذي دلّت عليه لفظة (نفس)، وحبّذا لو سار على هذا النهج في بقية النصوص التي أشار إليها و لم يحلّلها وهي قوله ﷺ :"**كلّ أرضٍ بسمَاتِها**"[2]، وقوله ﷺ:"**يا خيلَ الله اركبي**"[3]، وقوله ﷺ :"**لا تنطح فيها عنزان**"[4]، وقوله ﷺ :"**رُوَيْدَكَ رِفْقًا بالقَوَارِيرِ**"[5]، وقوله ﷺ :"**هذا يومٌ لهُ مَا بَعْدَهُ**"[6]، وقد اعتذر عن ذلك بقوله:"لو أردنا أن نستقصي في جمعها وفي شرحها واستنباطِ وجوه البيان منها، لطال بنا القول جدًا، ورجع أمرُ هذا الفصل أن يكون في معنى التأليف كتابًا برأسه، إن كنّا لا نلتزمُ إلاّ جهة البيان وحدها"[7].

فلم يكن من منهجه – إذن – التوسّع في هذا الأمر، وإنّما أراد الكشف عن الخصائص العامّة للتعبير النَّبوي، دون الدخول في التحليلات اللغوية والبلاغية العميقة، فكان هدفه الوصف العامّ ليس إلاّ، وهو جانب من التنظير الذي يعتمد في أساسه على البحث في الأصول العامة للتعبير النّبوي.

---

1 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة والنبوية**، ص263، 264.

2 لم نقف عليه في مظانه من كتب الحديث النبوي الشريف.

3 أبو داود، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود** (بيروت: دار الفكر (د.ت))، كتاب الجهاد، باب النداء عند النفير: يا خيل الله اركبي برقم 2560. ونسبه الحاكم في **المستدرك** إلى عليٍّ رضي الله عنه، ج2، ص397.

4 الشهاب، محمد بن سلامة، **مسند الشهاب** (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986م)، ج2، ص47.

5 البخاريُّ، **الجامع الصحيح**، كتاب الأدب، باب المعاريض مندوحة عن الكذب برقم 5856. ومسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل، باب رَحْمَة النبي ﷺ لِلنِّسَاءِ برقم 2323.

6 ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية** (بيروت: مكتبة المعارف (د.ت))، ج7، ص7.

7 الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة والنبوية**، ص265.

وفي مقالاته في "وحي القلم" وقفات تحليلية لبعض النصوص النّبوية، وفيها عناية واضحة بالدلالات الفكرية والاجتماعية، مع الإشارات المقتضبة إلى الدلالات الجمالية، ولعلّ مقاله "السموّ الروحي الأعظم والجمال الفنّي للبلاغة النّبوية"[1]، من أفضلها مادةً وأسلوبًا وتحليلاً، وهو المقال الذي كتبه بعد أن عكف على قراءة صحيح البخاري كلّه، وأشار إلى ذلك بقوله:"ولقد درست كلامه ﷺ، وقضيت في ذلك أيامًا أتتبعُ السرَّ الذي وقع في التاريخ القفر المجدب، فأخصب به وأنبت للدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة"[2].

وعبّر فيه عن صلاحية كلامه ﷺ في إنقاذ البشرية اليوم، وحبِّه الشديد لشخصية الرسول ﷺ وكلامه، ثمّ تحدَّث عن الحِكَم التي نطق بها الرسول ﷺ، فأحدثت ذلك التغيير الفريد في الجيل الأول من الصَّحابة والتّابعين، وحاول الرافعي ربطها بواقع المسلمين، لبيان أنَّ الإصلاح لا يكون إلاّ بالمنهج نفسه، ثمّ حلّل مجموعة من النصوص منها قوله ﷺ في حديث السفينة: "إنّ قومًا رَكِبُوا في سفينَة، فاقتسَمُوا، فصَارَ لكلّ رجلٍ منهم مَوْضِع، فنقَرَ رجلٌ منهم موضِعه بفأس، فقالُوا لَهُ ما تصنعُ؟ قال: هو مَكَانِي أصنعُ فيه ما شئتُ، فإن أخذُوا على يده نَجَا ونجوا، وإن تركُوه هَلَكَ وهلَكُوا"[3]، قال: "كان لهذا الحديث في نفسي كلامٌ طويلٌ عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر، ويسمون أنفسهم بالمجدّدين، وينتحلون ضروبًا من الأوصاف: كحرية الفكر، والغيرة، والإصلاح، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا، وأخلاقنا، وآدابنا بفأسه، أي بقلمه، زاعمًا أنّه موضعه من الحياة الاجتماعية، يصنع فيه ما يشاء، ويتولاه كيف أراد، موجهًا لحماقته وجوهًا من المحاذير والحجج من المدنية والفلسفة، جاهلاً أنّ القانون في السفينة هو قانون العاقبة دون غيرها"[4]. وأشار إلى الجمال الفنّي

1 الرافعي، **وحي القلم**، ج2، ص127.

2 المصدر نفسه، ص127، 128.

3 البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة برقم 2361.

4 الرافعي، **وحي القلم**، ج2، ص129.

القائم على التشبيه التمثيلي، كما توصَّل إلى أنّ كلمة (الخرق) في هذا الحديث لها دلالات فكرية كثيرة، فمن معانيها في البحر: القبر، والغرق، والهلاك، وأشار إلى تلك المفارقات التي يقتضيها سياق الحديث، مثل الحرية التي قد يكون من معانيها الجناية والزيغ والفساد، والقلم في أيدي بعض الكتاب من معانيه الفأس، والكاتب من معانيه المُخرِّب، والكتابة من معانيها الخيانة[1]، كما أشار إلى الجمال الفنّي في هذا الحديث الشريف من جهة اللغة بأوصاف عامّة تدلّ على التوسّع في المعاني، والبراعة في النظم، والتفوّق على كلام البلغاء، متوصلاً إلى أنّ الأهداف التعليمية هي الأساس في كلام النبيّ ﷺ، فهو كلّه دين وتقوى وتعليم، وكلّه روحانية وقوّة وحياة [2].

وحلّل أيضًا الحديث الشريف " عن النفر الثلاثة الذي آووا إلى غار فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار..."[3] ، وأشار إلى ما فيه من معانٍ سامية، ثمّ توصلّ إلى حقيقة مهمّة وهي:"أنّ تنشئة النّاسِ على البرِّ والعفّة والأمانة للإنسانية هي وحدها الطريقة العملية الممكنة لحلِّ معضلة الشرِّ والجريمة في الاجتماع البشري... وأنّ السعادة الإنسانية الصحيحة في العطاء دون الأخذ، وأنّ الزائفة هي في الأخذ دون العطاء، وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق[4].

وفي مقاله: "دروس من النبوّة"[5]، وقف عند الحديث الذي ورد سببًا في نزول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩ ﴾ (الأحزاب:28-29)، وأنّه ﷺ بدأ بعائشة – وهي أحبّهن إليه

1 المصدر نفسه، ج2، ص129، 130.

2 المصدر نفسه، ج2، ص130.

3 البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا برقم 2152.

4 الرافعي، **وحي القلم**، ج2، ص133.

5 المصدر نفسه، ج1، ص341.

– فقال لها:"إنّي ذاكرٌ لك أمرًا ما أحبُّ أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك"، قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيك أستأمـــر أبويَّ؟ بل أختار الله ورسوله[1].

وحلّل هذا الحديث تحليلاً دقيقًا مشيرًا إلى ما فيه من دلالات فكرية، وحاول ربطه بالواقع المعاش، وفيه دفاع قوي عن النبيّ ﷺ ورسالته؛ كما أشار إلى أنّ هذه (القصة) على حكمة رائعةٍ لم يتنبّه لها أحد، ومن أجلها ذُكرت في القرآن الكريم، لتكون نصًّا تاريخيًا قاطعًا يدافع به التاريخ عن هذا النبيّ العظيم في أمر من أمر العقل والغريزة؛ فإنّ جهلة المبشّرين في زمننا هذا، وكثيرًا من أهلِ الزَّيغ والإلحاد، وطائفة من قصار النظر في التحقيق، يزعمون أنّ محمَّدًا ﷺ إنّما استكثر من النساء لأهواءٍ نفسية محضة ... فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه، لما كانت هذه القصَّة التي أساسها نفي الزينة، وتجريد نسائه منها[2]، وخلص بعد التحليل إلى ذكر كثيرٍ من المعاني الدينية والاجتماعية والنفسية والتربوية التي أفادها هذا الحديث، ولا يتسع المقام لذكرها[3].

ومع عنايته الشديدة بالمعاني الشريفة التي دلّت عليها النصوص النَّبوية، والإشارة إلى ما فيها من فصاحة في اللفظ، ووضوح في المعنى، وبعد عن التكلّف، وحكمة في المقصد، نبّه – في بعض الأحيان – على ما فيها من جمال فنّي في التصوير ولكن بطريقة وصفية إجمالية، يظهر ذلك في تحليله لكلامه ﷺ وقد قال لأسامة بن زيد وقد كسا امرأته قُبطية (ثوبًا رقيقًا) :"**أخافُ أن تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا**"[4]. قال الرّافعي:"قال الشريف الرضي في شرح هذه الكلمة: وهي استعارة، والمراد أنّ القُبطية برقتها تلصق

1 مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الطلاق، باب بيان أنّ تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلاّ بالنية برقم 1478.

2 الرافعي، **وحي القلم**، ج1، ص341، 342.

3 انظر: السطوحي، عبد الستار علي، **الجانب الاجتماعي في أدب المفكر الإسلامي مصطفى صادق الرافعي** (القاهرة: دار الاعتصام (د.ت)، ص84، 85.

4 رواه الإمام أحمد في **المسند**، ج5 ص205.

بالجسم، فتبيّن حجم الثديين والرادفتين... ولكنَّ في عبارة الحديث سرًّا من معجزات البلاغة النبوية لم يهتدِ إليه الشَّريف، فإنّه عليه الصلاة والسلام لم يقل: "أخاف أن تصف حجم أعضائها"، بل قال: "حجم عظامها"، مع أنّ المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السموّ بالأدب، إذ ذِكْرُ "أعضاء" المرأة في هذا السياق، وبهذا المعرض، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث، ولفظة "الأعضاء" تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبّه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدّها الرضي في شرحه، وهي تُومئ إلى صور أخرى من ورائها، فتترّه النبيُّ ﷺ عن كلّ ذلك، وضرب الحجاب عن هذه المعاني السافرة[1].

ونجد تلك الإشارة السريعة إلى جمال التشبيه في قوله ﷺ :"إنَّ الْمُؤْمنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عليه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ"[2]؛ فمردّ ذلك الجمال إلى الإحساس "بحركة الجبل يهمُ أن ينقلع فيميل على المؤمن، أمّا الفاجر فيسمعه يذكره ذنوبه فإذا هي في خياله نقطٌ سودٌ تمرّ مرور الذباب، ليس منه إلاّ الحسّ به، كما يحسُّ من يُضربُ على أنفه برجل ذبابة، وجعل الذباب يمرّ على أنفه دون عينه أو فمه، وذلك منتهى الجمال في التصوير؛ لأنّ الذباب إذا وقع على الفم أو العين ثبت وألحَّ، فإذا وقع على قصبة الأنف لم يكد يقف ومرّ مروره"[3]، فإشارة الرّافعي إلى جمال التصوير ووظيفته في الدلالة على المعاني كانت – فيما يبدو – لتأكيد فكرة أنّ هدف الحديث النّبوي الشريف تعليمي تربوي بالدرجة الأولى، وما تلك الصور الجمالية إلاّ وسائل لتحقيق هذا الهدف الأسمى، ولذلك كان "من أقوى البراهين على كماله ﷺ ونبوّته واتّساع روحه، ونفاذ إدراكه لحقائق الكون، أنّه لم يتبسّط في تلك الفنون كما يصنع البلغاء"[4].

---

1 الرافعي، **وحي القلم**، ج2، ص139.

2 البخاريُّ، **الجامع الصحيح**، كتاب الدعوات، باب التوبة برقم 5949.

3 الرافعي، **وحي القلم**، ج2، ص141.

4 المصدر نفسه، ج2، ص143.

وخلاصة الأمر أنّ منهجه في تحليل النصوص النّبوية قائمٌ على إعطاء الدلالات المعنوية الجانب الأهمّ من الاهتمام، وكثيرًا ما تأتي نظراته الفكرية ممزوجة بانطباعات نفسية، وعبارات وصفية أدبية، فلم يكن معنيًا بالتفصيلات الجزئية في قضايا الأسلوب والفنون البلاغية، وكثيرًا ما تحدّث عن هذه القضايا بجمل وصفية هدفها بيان سموّ البلاغة النّبوية وكمالها، كما بيّن ذلك في حديثه عن أسلوبه ﷺ فقال:"أمّا أسلوبه ﷺ فأجد له في نفسي روح الشّريعة ونظامها وعزيمتها، فليس له إلاّ قوة أمر نافذ لا يتخلّف، وإنّ له مع ذلك نسقًا هادئًا هدوء اليقين، مبيّنًا بيان الحكمة، خالصًا خلوص السرّ، واقعًا من النفسِ المؤمنة موقعَ النعمةِ من شاكرها، وكيف لا يكون كذلك وهو أمر الروح العظيمة الموجّهة بكلمات ربّها ووحيه، ليتوجّه بها العالم كأنّه منه مكان المحور... لو شُـــبّه بشيءٍ لقيل فيه: إنّه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا"[1].

دفاع عن البلاغة النّبوية

يبدو دفاع الرّافعي عن الحديث النّبوي الشريف وبلاغته واضحًا في كتاباته؛ فقد جعله أحد عناصر منهجه في دراسة البلاغة النّبوية، والسّبب في ذلك – كما أشار الدارسون – راجعٌ إلى "أنّه نظر في واقعه فوجد تيارًا جديدًا جريئًا في مهاجمة الإسلام والعربية، فكان أن التزم مبدأ الدفاع عن هذه الثوابت الفكرية، ورأى أنّه فرضٌ من الفروض الملزمة، لا يستطيع أن يقوم به أحدٌ مقامه "[2]، وقد ذكر تلميذه محمد سعيد العريان أنّه كان مفتونًا بمقالاته الثلاث التي أنشأها: البلاغة النّبوية، وحقيقة المسلم، ووحي الهجرة، وكان حُسْنُ وقعها عند كثير من القراء حافزًا له على الاستمرار في هذا الباب من الأدب الديني، فعقد النيّة على أن يكتب السيرة النّبوية كلّها على هذا النّسق الفلسفي، ليجعلها كتابًا بعنوانه، يتناول سيرة النّبيّ المعظم ﷺ على طريقة من

1 المصدر نفسه، ج2، ص130، 131.

2 البيومي، **مصطفى صادق الرافعي**، ص127.

التحليل والفلسفة، لا على نسق من الرِّواية[1].

وبينما كان جورجي زيدان يحاول تشويه تاريخ الإسلام من خلال سلسلته المعروفة "روايات تاريخ الإسلام" وتفسير التاريخ الإسلامي تفسيرًا اقتصاديًا ودنيويًا بعيدًا عن الغايات الإيمانية، أراد الرَّافعي إعادة الأمور إلى نصابها، وكشف الأعماق الإيمانية في حركة المسلمين في التاريخ، وكيف أنّها كانت الدافع الأساس، والهدف الأسمى[2]؛ كما دافع عن علماء الحديث الشريف من السَّلف الصالح، وكتب سلسلة أدبية عن كبار علماء الحديث الذين جابهوا السلطان في غير هوادة[3].

وذكر أنّه كان حريصًا على الاتصال بحديث النَّبيّ ﷺ كلّ يوم مرَّات عديدة، ليحقّق في نفسه روح الإسلام، وكان كَلِفًا بجوانب شخصية الرسول العظيم، مغرمًا بتجلية أعماقها قدرَ استطاعته، كما كان معجبًا ببلاغته وبيانه[4]، وقد تحدّث مرارًا عن الرسول الكريم ﷺ وسيرته وصفاته وكيفية مجيئه، وضرورة وجوده، كما في مقاله :"الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام[5]، وفي معرض حديثه عن قصة الإسراء والمعراج تحدَّث عن النَّبي ﷺ ومعجزته، فقال:"قصة الإسراء والمعراج هي من خصائص نبيّنا محمد ﷺ، هذا النجم الإنساني العظيم، وهو النور المستجد لهداية العالم في حيرة ظلماته النفسية؛ فإنّ سماء الإنسان تظلم وتضيء من داخله بأغراضه ومعانيه"[6].

---

1 العريان، **حياة الرافعي**، ص178.

2 عويس، عبد الحليم، أسلوب الرافعي الأدبي في تناول التاريخ الإسلامي، **مجلة الأدب الإسلامي**، الرياض، العدد 43، 44 لسنة 2004م، ص44.

3 منهم: سعيد بن المسيّب، وأبي عامر الشعبي، ومالك بن دينار، وأحمد بن حنبل، والحسن البصري، والعزّ بن عبد السلام، وغيرهم، وقد أحسن أيما إحسان في وصف مشاهد من تلك المواقف، ورسم صورًا من صراعهم مع الباطل. انظر: البيومي، **مصطفى صادق الرافعي**، ص157.

4 الشكعة، **مصطفى صادق الرافعي كاتبًا عربيًا ومفكرًا إسلاميًا**، ص117.

5 الرافعي، **وحي القلم**، ج1، ص298.

6 المصدر نفسه، ج1، ص319.

وتحدّث عن هجرته ﷺ وما كان فيها من عبر وأحداث، ليصل بنظراته وتأمّلاته الفكرية إلى أنّ هذه الثلاثة عشر عامًا في مكة إنّما كانت مقدّمة لتاريخ الإسلام في الأرض، فالصبر والكفاح، والإيمان، ثمّ الأذى والمقاطعة والامتهان، كانت المقدّمة الصعبة للانطلاق المقدّس الذي عمّ خيره الإنسانية[1]، ونبّه الرافعي على وظيفة الأخلاق في التغيير الحضاري، فثبات الرسول ﷺ مع صحابته في الدعوة، وفاعليته وسمو أخلاقه كانا من الأسباب الكامنة وراء انتصار الحقّ، قال:"أليست تلك العوامل الأخلاقية هي التي ألقيت في منبع التاريخ الإسلامي، ليلعب منها تياره فتدفعه في مجراه بين الأمم، وتجعل من أخصّ الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا"[2].

لقد كان دفاعه عن النبيّ ﷺ وسنّته واضحًا في أدبياته، وكان هدفًا من أهدافه، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاباته، وقد حاول توظيف معرفته الفكرية والأدبية بالموروث القديم في جانبٍ منها في البيان والتأصيل النظري للخصائص المميّزة للحديث النبوي الشريف، وجانبٍ آخر إلى بيان ما حفل به من المعاني النَّبوية الشَّريفة، التي هي نتاج الحكمة والنبوّة، وما امتازت به شخصية النبيِّ الكريم ﷺ من صفات وقدرات، ولعلّ الاهتمام بالمتكلّم في عملية الخطاب هو أحد أبرز الأسس المنهجية التي تقرّها الدراسات الأسلوبية الحديثة، وأمّا موقف الدفاع عن الحديث الشريف الذي اتّبعه الرّافعي فهو شبيه إلى حدٍّ ما بموقف الجاحظ في الدفاع عن بلاغة العرب ضد الشعوبية[3]، ولا شكّ أنّ معطيات العصر الحديث التي شهدت شعوبية جديدة هدفها هدم الثوابت الأساسية في الموروث الثقافي العربي، قد وضعت الرافعي في هذا الموقف الدفاعي بعد أن أدرك ما لهذه الهجمة المستعرة على الثوابت الفكرية من أبعاد خطيرة على مستقبل الأمّة العربية والإسلامية.

---

1 المصدر نفسه، ج1، ص310.

2 المصدر نفسه، ج1، ص311.

3 الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج2، ص5.

خاتمة

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1. كان الرّافعي رائدًا في دراسة البلاغة النَّبوية، وقد عبّر عنها بطريقته الأدبية الخاصّة، وفتح بذلك الباب أمام الدّارسين الذين عُنُوا بالبحث في بلاغته ﷺ، وبيان مترلتها في فنون القول، وضرورة اللجوء إليها في تعليم النشء وتربيتهم في العصر الحديث.

2. فصاحة النبيِّ ﷺ وبلاغته توقيفٌ من الله تعالى، كما أنّ الأسباب الشَّخصية والبيئية هي التي كوّنت المَلَكَة اللغوية لدى النبيِّ ﷺ، ومنها: الفطرة اللغوية، والنشأة اللغوية في بيئات عربية فصيحة، والمعرفة الدقيقة بلهجات العرب، وقد أُخذ عليه اهتمامه الشديد بهذا الجانب، كما بدا تأثرّه واضحًا بما كتبه القدماء عن الفصاحة النَّبوية.

3. البلاغة النَّبوية لها نسقها الخاصّ، ففيها من الصنعة المحكمة، والطبع القوي، والصقل البديع، واللفظ المونق، والحكمة النَّاصعة، وأسلوبه ﷺ متفردٌ في هذه اللغة.

4. تميّز الأسلوب النَّبوي بثلاث خصائص بارزة هي: الخلوص، والقصد، والاستيفاء، ولم يتمكّن الرّافعي من تجاوز ما ورد عن القدماء، وكان كلامه مقتضبًا في إصداره الأحكام على المعاني، والنظم، والأسلوب.

5. أخذت الدلالات الفكرية للحديث النّبوي الشريف جانبًا من اهتمام الرّافعي، وذلك من خلال تحليلاته لنصوص من الحديث النبوي الشريف، وكان منهجه خاصًّا بالكشف عن الخصائص العامّة للتعبير النَّبوي، دون الدخول في التحليلات اللغوية والبلاغية العميقة، وكثيرًا ما تأتي نظراته التأمّلية ممزوجة بانطباعات نفسية، وعبارات وصفية أدبية، ولم يكن معنيًا بالتفصيلات الجزئية في قضايا الأسلوب والفنون البلاغية.

6. حاول الرَّافعي توظيف معرفته الفكرية والأدبية للدفاع عن الحديث النَّبوي الشريف والموروث العربي القديم بصفة عامّة، وكان موقف الدفاع الذي اتّبعه شبيهًا إلى حدٍّ ما بموقف الجاحظ في الدفاع عن بلاغة العرب ضد الشعوبية، ويبدو أنّ معطيات العصر الحديث التي شهدت تيارات فكرية معادية للموروث العربي القديم، قد وضعت الرافعي في هذا الموقف الدفاعي.

References: المراجع:

Al-Ḥākim, Muḥammad bin ʿAbd Allāh, *al-Mustadrak ʿalā al-Ṣaḥīḥayn* (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, 1990).

Al-Bayyūmī, Muḥammad Rajab, *Musṭafā Ṣādiq al-Rāfiʿī Fāris al-Qalam Taḥta Rāyat al-Qur'ān* (Damascus: Dār al-Qalam, 1997).

Al-Bukhārī, Muḥammad bin Ismāʿīl, *al-Jāmiʿ al-Ṣaḥīḥ* (Beirut: Dār Ibn Kathīr, 1987),

Al-Dabl, Muḥammad Saʿd, *al-Khaṣā'is al-Fanniyyah fī al-Adab al-Nabawī* (Riyadh: al-Imam Muhammad bin Saud University, no date).

Al-Jāḥiẓ, ʿUthmān bin Baḥr, *al-Bayān wa al-Tabyīn*, ed. Muḥammad ʿAbd al-Salām Hārūn (Cairo: Maktabat al-Khanjī, 7th edition, 1998).

Al-Jūzū, Musṭafā Ṣādiq *al-Rāfiʿī Rā'id al-Ramziyyah al-ʿArabiyyah al-Muṭillah ʿalā al-Suryāliyyah* (Beirut: Dār al-Andalus, 1985).

Al-Jurjānī, ʿAbd al-Qāhir, *Dalā'il al-Iʿjāz,* ed. Maḥmūd Shākir (Cairo: Maktabat al-Khanjī, 2nd edition, 1989).

Al-Khaṭṭābī, Aḥmad bin Muḥammad, *Gharīb al-Ḥadīth*, ed. ʿAbd al-Karīm al-ʿAzbāwī (Makkah al-Mukarramah: Umm al-Qura University, 1402).

Al-ʿAjlūnī, Ismāʿīl bin Muḥammad ʿAbd al-Hādī, *Kashf al-Khafā' wa Muzīl al-Iltibās* (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, 1988).

Al-Nisaburī, Muslim, *Ṣaḥīḥ Muslim* (Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʿArabī, no date).

Al-ʿUryān, Muḥammad Saʿīd, *Ḥayāt al-Rāfiʿī* (Cairo: Maṭbaʿat al-Risālah, 1939).

Al-Ṣabbāgh, Muḥammad, *al-Taṣwīr al-Fannī fī al-Ḥadīth al-Nabawī* (Beirut: al-Maktab al-Islāmī, 1988).

Al-Qāḍī ʿIyāḍ, *al-Shifā bi Taʿrīf Ḥuqūq al-Musṭafā,* ed. ʿAlī Muḥammad al-Bijāwī (Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿArabī, 1984/.

Al-Rāfiʿī, Musṭafā Ṣādiq, *Waḥy al-Qalam* (Beirut: Muassasat al-Risālah, 2001).

Al-Rāfiʿī, Musṭafā, *Iʿjāz al-Qur'ān wa al-Balāghah al-Nabawiyyah* (Beirut: al-Maktabah al-ʿAṣriyyah, 2003).

Al-Rāfiʿī, Musṭafā, *Tārīkh Adab al-ʿArab* (Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿArabī, 1974).

Al-Shakʿah, Musṭafā, *Musṭafā Ṣādiq al-Rāfiʿī Kātiban ʿArabiyyan wa Mufakkiran Islāmiyyan* (Cairo: al-Dār al-Miṣriyyah al-Lubnāniyyah, 3rd edition, 1999).

Al-Shāfiʿī, Muḥammad bin Idrīs, *al-Risālah,* ed. Aḥmad Muḥammad Shākir (Cairo: 1939).

Al-Shihāb Muḥammad Salamah, *Musnad al-Shihāb* (Beirut: Muassasat al-Risālah, 1986).

Al-Sijistānī, Abū Dāwūd Sulaymān bin al-Ashʿath, *Sunan Abī Dāwūd* (Beirut: Dār al-Fikr, no date).

Al-Suṭūhī, ʿAbd al-Sattār ʿAlī, *al-Jānib al-Ijtimāʿī fī Adab al-Mufakkir al-Islāmī Musṭafā Ṣādiq al-Rāfiʿī* (Cairo: Dār al-Iʿtiṣām, no date).

Al-Tirmidhī, Muhamamd bin ʿĪsā, *Sunan al-Tirmidhī* (Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʿArabī, no date).

Al-Uryan, Muḥammad Said, *al-Imām Musṭafā Ṣādiq al-Rāfiʿī* (Baghdad: Dār al-Baṣrī,

1968).

Balbaʿ, ʿĪd, Naẓariyyat Balāghat al-Ḥadīth al-Nabawī: Ḥaqā'iq wa Shubuhāt, *Majallat Markaz al-Buhūth wa Dirāsāt al-Madīnah al-Munawwarah*, issue 25.

Darrāz, ʿAbd Allāh, *al-Naba' al-ʿAẓīm* (Kuwait: Dār al-Qalam, 4th edition, 1977).

Hussayn, Ṭāhā, *Ḥadīth al-Arbiʿā'* (Cairo: Dār al-Maʿārif, 1960).

Ibn al-Athīr, al-Jazrī, *al-Nihāyah fī Gharīb al-Ḥadīth*, ed. Ṭāhir al-Zāwī (Beirut: al-Maktabat al-ʿIlmiyyah, 1979).

Ibn al-Athīr, Ḍiyā' al-Dīn, *al-Mathal al-Thā'ir*, ed. Aḥmad al-Ḥūfī and Badawī Ṭabbānah (Cairo: Dār al-Nahḍah, no date).

Ibn Fāris, Abū al-Husayn Aḥmad, *al-Ṣāḥibī fī Fiqh al-Lughah al-ʿArabiyyah* (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, 1997).,

Ibn Kathir, Ismāʿīl bin ʿUmar, *al-Bidāyah wa al-Nihāyah* (Bairut: Maktabat al-Maʿārif, no date).

Ibn Manẓūr, Jamāl al-Dīn Muḥammad ibn Mukarram, *Lisān al-ʿArab* (Beirut: Dār al-Ṣādir, 1st edition, 1992).

Ibn Taymiyyah, Aḥmad al-Ḥarrānī, *Majmūʿ Fatāwā Shaikh al-Islām Ibn Taymiyyah*, (Riyadh: Maktabat Ibn Taimiyyah, 1982).

Laḥḍar, Zabādiyyah Muḥammad, *Min Aʿlām al-Naqd al-ʿArabī al-Ḥadīth wa al-Muʿāṣir* (Cairo: Dār Gharīb, 2007).

M.H.M, Ḍayf Allāh, *Nathr Musṭafā Ṣādiq al-Rāfiʿī* (Algiers: Dār Maktabat al-Shirkah al-Jazā'iriyyah, 1968).

Uways, ʿAbd al-Ḥalīm, "Uslūb al-Rāfiʿī al-Adabī fī Tanāwul al-Tārīkh al-Islāmī", *Majallat al-Adab al-Islāmī*, Riyadh, issue 43-44 year 2004.